

2 - عصر سيادة برنو : باستئناف الماي عمر بن إدريس الحكم من إقليم برنو بدأ ما يعرف بعصر سيادة برنو و الذي امتد حتى نهاية الدولة سنة 1262هـ/1846م ، و قد ترك طرد الماغوميين السيفيين إلى برنو فراغا سياسيا في كانم ملأه البولالا الذين أقاموا سلطنة كبيرة ضمت هذا الإقليم بالإضافة إلى إقليم بحيرة فترى و المناطق المحيطة بها في حوض بحيرة التشاد¹ .

و استمر الصراع بين البولالا و الماغوميين في مقرّهم الجديد مدينة "بيرني نجازر جامو" التي اتخذوها عاصمة لهم ، و قد تمكن المايات في برنو من استرداد قواهم منذ النصف الثاني من القرن 15م و وصلت أوجها أثناء القرن 16م² ، و قد تبادل الطرفان المتصارعان النصر و الهزيمة و خاصة في عهد الماي إدريس بن عائشة (908-932هـ/1502-1526م) الذي أنزل بأعدائه هزيمة ساحقة و استولى على العاصمة جيمي و أقام بها فترة ثم عاد إلى بيرني ، و تابع ابنه الماي علي بن إدريس (952-953هـ/1545-1546م) محاربة البولالا حتى لقب بحارق البولالا ، و لم يلبث أن لقي حتفه في إحدى معاركه ضدهم ، و لم يقض على خطرهم إلا الماي إدريس ألوما (978-1011هـ/1570-1603م) الذي أقام علاقة ود و صداقة و مصاهرة معهم ، فأعاد نفوذ أسرته إلى إقليم كانم ، و وصلت الإمبراطورية في عهده إلى أقصى اتساعها و قوتها و ازدهارها³ .

و قد أقام الماي إدريس ألوما دولته الجديدة على أساس القوة الحربية ، و أدّى الإصلاح الذي أدخله على الجيش إلى بلوغه مكانة لا تبلغها مكانة أي جيش آخر في بلاد السودان ، و استقدم فصيلة من حملة البنادق الأتراك تولت تدريب حرسه المكون من الرقيق على استعمال الأسلحة النارية ، و بفضل هذه الترتيبات أصبح جيش برنو فريدا في إفريقيا الزنجية ، ثم أحدث تغييرا شاملا في نظام النقل في الجيش بإحلال الإبل و الجياد محل البغال و الثيران ، كما طوّر الملاحة البحرية فحلت القوارب الكبيرة محل الأشجار المجوفة ، و بذلك اكتسب جيشه قدرة على الحركة كان يفتقر إليها .

و قد خلف الماي إدريس ألوما ميايات ضعاف بلغو خمسة عشر سلطانا على مدى قرنين من الزمن ، و أصيبت البلاد بعدد من المجاعات ، كما ظهر خطر القبائل الوثنية في منطقة جومبي تسمى قبائل كوارارافا و قد تمكنت من اجتياح الأقاليم الغربية في برنو و قتلت أحد المايات سنة 1026هـ/1618م ، كما حدثت حروب أخرى بين برنو و جيرائها من إمارات الهوسا و خاصة إمارة كانو في النصف الأول من القرن 18م ، غير أنّ أهم خطر تعرضت له مملكة البرنو هو خطر

¹ نفسه، ج2، ص 195 .

² د/ جلال يحيى، مرجع سابق، ص 44 .

³ الموسوعة الإفريقية، ج2، ص 196 .

الفولانيين ، و هم قبائل بيضاء انحدرت من الشمال و استقرت في إمارات الهوسا ، و قامت بقيادة عثمان بن فودي بحركة ضخمة لنشر الإسلام بين الوثنيين في هذه الإمارات ، و تمكنت أخيرا من ضمها في دولة واحدة تحت زعامة هذا القائد الذي أعلن قيام دولة الفولاني في بداية القرن 19م¹.

و عندما لاحظت القبائل الفولانية التي كانت تعيش في مملكة برنو وجود تحالف سرّي بين تلك المملكة و ممالك هايب الوثنية التي تحارب دولة صوكنو أو سكوتو العثمانية الإسلامية (نسبة إلى عثمان بن فودي) قامت بتدبير ثورة داخلية نجحت في دخول عاصمة برنو عام 1223هـ/1808م ، و فرّ الماي أحمد بن علي (1206-1223هـ/1791-1808م) و لجأ إلى المناطق الحدودية الشرقية الشمالية و استنجد بالقبائل الكانمية بزعامة ملكها محمد الأمين الذي تمكن من استرجاع عاصمة برنو ، و بذلك يكون محمد الأمين الكانمي هو مؤسس دولة برنو الحديثة و أول من تقلّد لقب "شيهو برنو" أي زعيم أو شيخ أهل برنو و توفي هذا السلطان سنة 1250هـ/1835م و خلفه ابنه عمر الأمين².

و بعد عمر تولى ابنه أبو بكر (1296-1300هـ/1880-1884م) و بعده تولى أخوه إبراهيم مدة عام ليخلفه الشيخ هاشم (1301-1310هـ/1885-1893م) ، و في عهده دبّ الضعف في برنو ، و في نهاية القرن 19م هاجم برنو زعيم سوداني يدعى رابح الزيري نسبة إلى الزير باشا الذي كان تاجرا و اشتد نفوذه فنال مكانة سياسية هامة ، ففتح منطقة دارفور باسم الحكومة المصرية و كان رابح قائدا عنده ، و عندما غدر غوردن باشا حاكم السودان إبان عهد الخديوي إسماعيل بالزير قرّر رابح الانتقام فدخل كانم و قضى على سلطة برنو عام سنة 1310هـ/1893م و أصبح حاكم هذه المنطقة ، و في سنة 1317هـ/1900م قتل رابح في معركة مع الفرنسيين ، و دخلت فرنسا المنطقة مع بريطانيا ، فتقاسمت الدولتان أراضي برنو التي لم يعد فيها أي سلطة إسلامية ، و من الدول التي قامت على أنقاض إمبراطورية برنو كل من التشاد و جمهورية إفريقيا الوسطى و النيجر و نيجيريا و الكامرون³.

¹ الموسوعة الإفريقية، ج2، ص 197 .

² عثمان برايم باربي، جذور الحضارة العربية الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين، القاهرة، ص 113 .

³ سعيد إبراهيم كريدية و محمد فاضل علي باربي، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ و حضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2007م، ص ص 139-140 .